الجزائر والوندال 429-534م

البرابرة الوندال من الشعوب الجرمانية التي هاجرت من سواحل البلطيق حوالي القرن الأول الميلادي وزحفوا إلى أوربا، واستولوا على بلاد الغال وإسبانيا سنة 409م واستقروا جنوبا في مقاطعة **باتيكا**، وما لبثت أن أخذت اسمهم فدعيت (**Vandalicia**)، ومن يومئذ دعيت البلاد باسمهم "**وندالوسيا**" وصحفه العرب الفاتحون إلى اسم "**الأندلس**". اتفق الوندال مع الرومان سنة 411م على أن يمنحوهم حق الاستقرار في تلك البلاد إزاء قيامهم بالدفاع عنها ضد الأخطار الخارجية، لكن الرومان بعد أربع سنوات أخذوا يدفعون القوط الغربيين لمهاجمتهم، وقد صمد الوندال أربع عشرة (14) سنة أحرزوا خلالها بعض الانتصارات، لكنهم أدركوا عجزهم عن الاستمرار في المقاومة، فانطلق بهم ملكهم **جنسريق Geisérie (477-419م)** سنة **429 م**عبر مضيق جبل طارق إلى شمال إفريقيا، ونزل بهم في أراضي المغرب الحالية آملا أن تكفي الحبوب والغلال الوفيرة هناك لسد حاجة شعبه، وقد سهل الأمر للوندال الفوضى والاضطراب التي كانت تسود الشمال الإفريقي خاصة أنه كان على رأس الإمبراطورية الرومانية إمبراطور ضعيف هو **فالنتيان الثالث** (**425-455م**). ضف إلى ذلك عامل هام يمثل في ثروة افريقيا، إذ لم يغادر جنسريق الأندلس إلا من أجل الأراضي الغنية أكثر، أراضي موريطانيا القيصرية، نوميديا وكذلك أراضي البروقنصلية. زيادة على ذلك فإن افريقيا كلها كانت تحت أمام ضعف روما تريد أن تسترجع استقلالها. فكان بامكان **جنسريق** أن يأمل في فتح سهل.

وأثناء اكتساح الوندال لشمال إفريقيا كان الصراع قائما ين الرومان على العرش الإمبراطورية، وكان النوميديون ينتظرون دخول الوندال بلهف ليخلصوهم من الاستعمار الروماني، كما وجد **الدوناتيون** فرصة للانتقام من الكاثوليك الذين اضطهدوهم. ودخلوا إفريقيا الشمالية كما ذكرنا سابقا من إسبانيا تلبية لنداء القائد الروماني **بونيفاس** حاكم إفريقيا على **سبتة** عن طريق مضيق جبل طارق بجيش قوامه **80 ألف** من الرجال والنساء والأطفال من بينهم **15 ألف** عسكري بقيادة **جنسريق**، وأثناء دخولهم للشمال الإفريقي- سيطروا على الجزء الغربي من الشمال الإفريقي- خربوا كل ما وجدوه في طرقهم من مزروعات ومباني، وطردوا أتباع الديانة الكاثوليكية. وأثناء هذه الفترة قام القديس أوغسطين أسقف عنابة بمساع حميدة لدى الحكومة الرومانية بروما، وأقنع الإمبراطور الضعيف **فالنتيان** (425-455) وأمه المتسلطة عليه، فأعادت بونيفاس إلى ولايته. وعندما أعيد **بونيفاس** إلى الحكم-ولايته- من طرف الإمبراطور طالب الوندال بالرحيل إلا أنهم قابلوا ذلك بالرفض، فأعلن الحرب ضدهم وخسر المعركة في ضواحي قالمة، ثم لجأ إلى مدينة **عنابة- Hippone** واستطاع أن يصمد أمام قوة الوندال التي حاصرته مدة عام، وفي الأخير دخلوها عنوة سنة **431 م**وجعلوها عاصمة لهم، ففر **بونيفاس** إلى إيطاليا وندم على خيانته، وأضحى **جنسريق-**سيد إفريقيا، وأثناء الحصار

تـوفي الفيلسـوف والقس الجزائـري المشـهور **أوغسطينAugustin**، وتمكنـوا خلال فترة وجـيزة من الاسـتيلاء على نوميـديا؛ ثم امتـدت سـيطرتهم حـتى حـدود تـونس . وقـد اضطرت الإمبراطورية الرومانية إلى معاملتهم كحلفاء وعقدت معهم معاهدة تحالف سـنة **435م**؛ والتي تم بموجبها الاتفاق على **بقاء الوندال في الأراضي النوميديةمقابل دفعهم لضريبةالأرض" عقد الوندال اتفاقا مع السلطات الرومانيةاعترفوا بحمايتها وسلطتها عليهم، التزموا بوقف نفوذهم عند حدود نوميديا،ودفع غرامة سنوية لروما مع وضع هنريك بن جنسريق رهينةعندها"/ فيسنة 435 م وقعت اتفاقية هيبون، حيث يدخل الوندال في خدمةالإمبراطورية بصفتهم أعضاء في اتحاد فيدرالي، وعليهم أن يدفعوا ضريبة خفيفة، ومنحوا قطعةأرض**. ولكن سرعان ما خرق الوندال هذه المعاهدة مغتنمين فرصة انشغال الرومان بمحاربة القـوط، وبينمـا كـانت رومـا تتخبـط في شـمال داخليـة اسـتولى الونداليون على قرطاجة التي كانت أهم مدينة في الإمبراطورية الرومانية الغربية بعد روما سنة **439 م**بدون مقاومة، فقد كانت غلال تونس الوفيرة من الحبوب كانت تثير أطماعهم، ونقلوا إليها عاصمتهم وأسسوا دولة وراثية تداول الحكم فيهـا سـتة ملـوك هم: (جنسـريق 429-477م، هنريك 477-484م، جونثاموند 484-496م، ثراسامونـد 496-523م، هلـدريك 523-531م، جليمار 531-534م).

واضطرت الإمبراطوريـة مـرة ثانيـة إلى عقـد معاهـدة معهم سـنة **442م** اعـترفت فيهـا بدولتهم من طنجة حتى طرابلس. وتعتبر معاهـدة سـنة **442م** حـدثا مهمـا في العلاقـات الرومانية الجرمانيـة، إذ كـانت البدايـة لتمزيـق وحـدة الأراضـي الرومانيـة، لأنهـا جعلت من جنسريق ملكا مستقلا وليس تابعا للإمبراطور.

اتسم حكم **جنسريق** بالعنف والقسوة، إذ أن ضآلة عدد الوندال بالنسبة للسـكان في شـمال إفريقيـا اضـطرته لسـلوك سياسـة متشـددة لإبقـاء سـيطرته على البلاد، وقـد قـام بمصـادرة أملاك وأمـوال الرومـان ووزعهـا على شـعبه، كمـا تعسـف في جمـع الأمـوال والضرائب من الأهالي، واضطهد الكاثوليك وصادر ممتلكات الكنائس والأديـرة، وقمـع كـل محاولة للتمرد والثورة بوحشية بالغة، كما قام الوندال بعمليات قرصـنة ونهب حـتى أصـبح لفظ **الفندالية(Vandalism)** في اللغات الأوربيـة الحديثـة مرادفـا لمعـنى الوحشـية والهمجية. أنشأ الوندال أسطولا بحريا سـيطروا بـه على جـزء من غـرب البحـر المتوسـط، بحيث أن روما أصبحت تواجه لأول مرة منذ حروبها مع قرطاجة قوة بحرية معاديـة تفـوق قوتها البحرية، وبواسطة هذه القوة البحريـة أغـار الونـدال على جـزر كورسـيكا وسـردينيا والباليار وصقلية التي استولوا عليها، ثم استطاعوا من بعد مقتل الإمبراطور فالنتيان الزحف إلى روما واحتلالها سنة **455م ؛** ومكثوا فيها حوالي نصف شهر وبعد تخريبها رجعـوا منهـا إلى إفريقيا بغنائم وافرة، وكانوا يستخدمون السفن البحرية الصغيرة الحركـة، بينمـا كـانت

سفن الرومان ضخمة وبطيئة بناقلات الجنود، كما اعتمد الوندال في حروبهم على عنصري المفاجئة والتمويه والخداع. وأخيرا اعـترفت الإمبراطوريـة الرومانيـة بسـيادة الونـدال على الشمال الإفريقي.

وأثناء وجودهم بشمال إفريقيا استولى الوندال على أخصب الأراضي الزراعية وطـردوا ملاكها من البربر وفرضوا عليهم ضرائب فاحشة، كمـا طـردوا واضـطهدوا رجـال الكنيسـة. **ولم يمس جنسريق الفلاحين، مصدر الحرث والضرائب، في حين كان اضطهاده والنبلاء قاسيا، فصادر أراضيهم وخزائنهم. ونقل الكثير من الكنائس إلى العبادة الأريوسية، وكان القمع ضد الكاثوليك قاسيا جدا في عهد جنسريق.** وأصبحت في عهدهم الديانة الآرية هي الديانة الرسمية، واحتفظ الوندال على النظام الإداري الذي كـان سـائدا في عهـد الرومـان، وتمت هـذه الانتصـارات على يد ملك الوندال الشهير **جنسريق** الذي توفي عـام **477م**.ثم خلـف ابنـه **هونيرك Hunéric** ولكن حكمه لم يدم طويلا، وكان خصما عنيدا للكاثوليكيين وقد توفي سنة **484م**، ومن بعده حكم الونـدال **كونطامون Gunthamund** وفي عهـده رد الاعتبـار لرجال الكنسة، وعرفت نوميديا ثورات خاضها البربر ضد حكم الوندال وتوفي سـنة 496م، فخلفه **ثرازامون Thrasamun** وكـان شخصـا مثقفـا واتسـم عهـده بالبـذخ واضـطهاد الكنيسة الكاثوليكية، وانهزم جيشه أمام ثوار البربر فمات غمـا من أجـل ذلـك سـنة **523م**، فخلفه ابنه **هيلديريك Hildéric** الذي تزوج ابنة إمبراطور القسطنطنية الذي كانت تربط بينهم علاقة جيدة، وكان متسامحا جدا مع رجال الكنيسة وخلع من منصبه إثـر ثـورة الـبربر ضده فاعتقل ونصبوا **جيليمير Gélimer** مكانه، وقد حاول **جليمار** إنقاذ الوضـع من ذلك الفساد، والتعفن، وسعى دون جدوى لإطفاء نار تلك الثورات الأهلية بالقوة والعسف، واسـتنجد هلـدريك المخلـوع بـالإمبراطور جسـتنيان **Justinien** البـيزنطي (527-575م) ليساعده على العودة إلى العرش، فطالبهم بإرجاعـه إلى عرشـه؛ ولكن الونـدال رفضـوا، فأعلن عليهم الحرب وشن حملة كبيرة تتكون من **14000** عسكري تحملهم **500** سـفينة حربية بقيادة القائد البيزنطي **بليزار Bélisaire** ، وصادف وصول هـذه الحملـة غيـاب الأسطول الوندالي في الميـاه الإيطاليـة محاصـرا لجزيـرة سـردينيا الثـائرة، وغيابـه نفسـه بـالجنوب التونسـي في جهـات الفراشـيش من أجـل القضـاء على ثـورة الأمـير انطلاس. واستطاع أن يحتل **قرطاجة** سنة **534 م**ـدون مقاومـة تـذكر، ثم تبـع بلـيزار هجومـه على جيوش الوندال المتبقية، وإثر الانهزام فر **جليمير** من قرطاجة واختبأ في الجبـال ولشـدة قساوة الحياة استسلم إلى القائد **بليزار**، وبعد قـرن من من الاحتلال والظلم والطغيـان؛ انتهى عهد الوندال في الشمال الإفريقي دون أن يترك أي أثر حضاري، وأكثر ما كتب عنهم أنهم شعب همجي... الشيء الملاحظ أنه بعـد وفـاة **جنسريق** سـنة **477م**، لم تعمـر دولة الوندال طويلا، واستطاع الروماني **بلزاريوس** القضاء على دولتهم نهائيا سنة **534م** واسترداد كل شمال إفريقيا، بعد أن عاشت تحت حكمهم حوالي القرن.

كان الوندال قليلي العدد، 50.000 محارب في بداية الغزو، 80.000 بعد قرن. في الجزائر **لم يشكلوا جماعات ملتحمة ولكنهم احتفظوا بالحفاظ على بعض الحاميات. واستغلت الدومينات الامبراطورية من طرف المزارعين** وأديرت من طرف مسيرين لحساب الملك. **أما قسوة الوندال فكانت ضد الأرستقراطية الرومانية والكنيسة**. فقد فقد النبلاء أراضيهم والمقدمة التي كانوا يحتلونها في الدولة، فكان على البعض منهم أن يستسلم للتحول إلى معمر بسيط. وحارب الوندال الكاثوليك سواء كان ذلك حقدا- كان الوندال يمارسون المذاهب المورثة عن **أريوس** وكانوا يشهرون العبادة الإلهية باللغة الغوتية- أو احتراما، لأن الكاثوليك كانوا يقيمون علاقات مشبوهة مع البابا، وامبراطور القسطنطنية والكنائس الأجنبية. لقد طاردوا العديد من الأساقفة، فكان على **أسقف بسكرة**، **أوبتا فيسيرا** أن يذهب إلى ايطاليا أين هو مدفون اليوم بجانب ضريح أحد البابوات، في أحد سراديب الأموات بروما. **لقد كان القمع قاسيا جدا في عهد خلفاء جنسريق**، استدعى **هونريق (477-484م) مجمع لدينيا** في **قرطاجة** (من 406 أساقفة جاء 120 من موريطانيا القيصرية و 44 من موريطانيا السطيفية) واستغل الفرصة ليعلن عن مرسوم انتقام يطبق على الكاثوليك الأنظمة الإمبراطورية ضد الهراطقة، **فهلك حوالي 90 أسقفا إفريقيا خلال سنين**. وفي **تيبازا (تيفيش) رفض المؤمنون الاعتراف بالأسقف الأريوسي وفروا نحو إسبانيا**، قطعت ألسنة الذين لم يفعلوا، **واستسلم الكثير من الكاثوليك وخضعوا لقبول التعميد الأريوسي.**

وكان الحكم في عهدهم **ملكيا وراثيا استبداديا** يساعده مجلس أعيان متكون من القادة الكبار في الجيش والموظفين السامين في المملكة، وقسمت نوميديا في عهدهم إلى خمس مقاطعات يحكم كل منه حاكم يتولى الشؤون الإدارية والقضائية، واحتفظ الوندال **باللغة اللاتينية** في معاملتهم الإدارية مع الأهالي. واتسم المجتمع الوندالي بالطابع العسكري، وكانوا كغيرهم من المحتلين السابقين مقسمين إلى طبقات تأتي في المرتبة الأولى طبقة النبلاء المتكونة من القادة العسكريين والموظفيين السامين ومنحت لهم أوسع وأجود الأراضي الفلاحية، ويليها طبقة الجنود المحاربين وتضم كل المواطنين الوندال وزعت عليهم قطعة أرض، هذا بالإضافة إلى المرتزقة الذين كانوا يحاربون معهم، وأخيرا الرقيق جلبوهم من إسبانيا واستخدموهم في الفلاحة. وفي عهدهم تقلصت الحياة الاقتصادية في نوميديا لسبب أعمال القرصنة التي كانوا يقومون بها في البحر المتوسط وهذا خاصة في العهد الأول لم تكن تكفي إلا لسكان نوميديا، وركزت على صناعة النسيج والحرير والأثاث وصناعة الأسلحة الحربية والسفن. وقد استولى الوندال على أخصب الأراضي الزراعية وترك الأقل جودة للأهالي، وكبلوهم بالضرائب بينما كان الونداليون معفيين منها، هذا وبقيت الفلاحة على حالها مثلما كانت عليها في عهد الرومان من إنتاج

الحبوب والأشجار المثمرة وتربية المواشي من الأغنـام والخيـول، وكانـةوا يتـاجرون بهـذه الخيرات مع الدول الأجنبية.

ولم يخلف الونـدال أي أثـر حضـاري في البلاد نظـرا إلى أنهم، كـانوا بـداة متوحشـين كمـا سبق، لا يقيمون للحضارة أي معنى. ولم يكن الوندال أهل حضارة ولا كانوا يقدرون القيم الحضارية، بل إنهم قوم غلاظ يرتبط اسمهم بكل مفاهيم الوحشية والهمجيـة، بـل حكمـوا بـالبلاد بالاسـتبداد المطلـق، وصـادروا الضـياع منهم من الأهـالي، وانـتزعوا منهم أملاكهم وأراضيهم، وتعسفوا في جمع الضرائب، واتبعوا سياسة دينية متطرفـة فصـادروا ممتلكـات الكنيسة الكاثوليكية واضطهدوا رجال الدين اضطهادا بالغـا، لأنهم كـانوا أريوسـيين وبـالغوا في ممارسة سياسة النهب والسلب، وتهديم كل معالم الحضارة والعمران، بقـدر مـا كـانوا ينغمسون في حياة اللهـو المجـون. وكـرد فعـل لهـذه الأعمـال الوحشـية قـامت في البلاد ثورات وطنية عديدة تطالب بتحريـر البلاد، وفي نفس الـوقت نشـبت خلافـات بين الونـدال أنفسهم على السلطة فكثرت الدسائس وعمت لمؤامرات ضد كل حاكم منهم.